الإسلام الحقيقي والإسلام الشكلي

سؤال: هل توضّحون حقيقة: "إن الإسلام ليس مجرد شكلٍ وصورةٍ"؟

الجواب: إن الإسلام -كما ذُكر في السؤال- ليسَ مجرَّدَ شكلٍ وصورةٍ ومنظرٍ وصخبٍ وكلامٍ جزافٍ، ولا قيامٍ بمجموعةٍ من الأمور الشكلية، بل على العكس من ذلك: إنه أمرٌ قلبيٌّ، أي إنّ الأهمَّ والأساسَ إلى جانب الشكل هو الجوهرُ والمعنى؛ وقد لَفَتَ رسولُ الله ﷺ الانتباهَ إلى تلك الحقيقة بقوله: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"[١٠٥]، وقد قال صوتُ الأناضول العذبُ الشاعرُ "يونس أمره" في أحد أشعاره ما ترجمته:

ليس التصوف بارتداء الخِرَقِ والتيجان

فمن يجعل قلبَهُ درويشًا لا يَحْتَاجُ خِرَقًا على الأبدان

ليؤكِّد بهذين المصراعين أنَّ ما يجب الوقوف والتركيز عليه أكثر من الشكل والمنظر إنما هو القلب.

(١٠٥) صحيح مسلم، البر، ٣٤؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٩؛ مسند الإمام أحمد، ٢٢٧/١٣.

obeikandl.com

ماذا إن بدا ما بداخلنا؟!

ومن هذه الناحية فثمّة أشخاص كثيرون يتقدّمون الصفوف، ويسعون إلى تمثيلِ الإسلامِ بصخبٍ وخُيلاء؛ إلا أنَّهم لا يعدلون جناح بعوضةٍ في ميزان الله ﷻ. أجل، إنّ هؤلاء وإن بدوا في مقدّمة ركْبِ الإسلامِ في الدنيا إلا أنهم سيكونون في وضع بائس ومؤسفٍ في الآخرة، وفي مقابل هؤلاء ثمة رجال آخرون لا يُقدَّرون حق قدرهم في هذه الدنيا، ويبدون في الصفوف الخلفية من المسيرة سوف يتبين في الآخرة أنهم سبقوا السابقين، وتباروا في حياتهم المعنوية مع الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وبناءً على ذلك: فإن إصدار أحكامٍ بحقّ الآخرين بالنظر إلى مظهرهم الخارجي وأقوالهم وأشكالهم وصورهم ربما لا يؤدّي بنا إلى نتائج صائبة دائمًا، وهذه حقيقة أشار إليها رسولنا ﷺ بقوله: "**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**"(١٠٦).

ومن المهمّ ههنا عدم حملِ الكلامِ على غير محمله؛ فإيّاكم أن تفهموا أنه لا بدَّ للإنسان أن يكون متواضعًا وحقيرًا حتى يتسنّى له إدراك وإحراز هذا النوع من المقامات والمراتب السامية؛ إذ إن من يتولّون مناصب ومقامات دنيوية معينة قد يصلون بإذن الله ﷻ إلى أعلى المراتب عنده ﷻ طالما سلمت قلوبُهم ووفّوا بحقّ مسؤوليّاتهم، وكلُّ واحدٍ من ساداتنا الخلفاء الراشدين يُمثِّل نموذجًا أجملَ من الآخر في هذا الشأن.

(١٠٦) صحيح مسلم، البر، ١٣٨، الجنة، ٤٨.

حياة القادة الحقيقيين المؤثّرة في الأنفس

هـا هو ذا سـيدنا أبو بكر ﷺ، عندما تولـى الخلافةَ فَرضوا له من بيت المال ما يصلحه ويصلح عيالَه يومًا بيوم إلى جانب مؤنة الحج والعمـرة، فحينمـا حضرته المَنيَّةُ أوصى بأن يُسـلَّم ما زاد عن حاجته من راتبه إلى من سَيَخلُفُه من بعده؛ وقال ﷺ وهو على فراش الموت: "انظـروا إلـى ما زاد مـن مالي مذ دخلتُ في هذه الإمـارة فردُّوه إلى الخليفـة مـن بعدي"، فلما جيءَ بذلك إلى عمـر بكى ثم قال: "رحم الله أبـا بكـر لقد أتعبَ من بعده إتعابًا شـديدًا"(١٠٧)، ولقد كان سـيدنا أبو بكر ﷺ قبل الإسـلامِ غنيًّا لكنه بعد الإسـلامِ أنفقَ ثروته كلّها في سـبيل الله، ولـم يفكِّرْ في أن يسـتغلَّ لصالـح نفسه ولو ذرة واحدةً مما يمتلِكُـهُ، وبالرغـم من كثرة النعم والإمكانيـات التي وهبها الله تعالى له؛ إلا أنّه انتقل إلى الدار الآخرة خاوي الوفاض من النعم الدنيوية.

ولـم تكـن حياة سـيدنا عمر بن الخطـاب مختلفةً عـن حياة أبي بكـر الصديـق ﷺ؛ فحين كان علـى رأس الدولة طلـبَ تحديدَ راتبه الشخصيّ بقدر ما يتعيّش به أيّ إنسان متوسط الحال من الأمة، وفي عـام الرمـادة حرَّمَ على نفسـه الطعـام إلا بقدرِ ما يـأكل أفقرُ الناس، وهـو الخبز والزيت، فكانت بطنه تُقَرْقِرُ من شـدّة الجـوع، فَنَقَرَ بطنَه بإصبعـه، وقـال: "قرقـري أو لا تُقَرْقِـري، إنه ليس عندنـا غيره حتى يحيـا النـاس"(١٠٨)، وقد رحل عـن الدنيا ذلك الخليفـة العظيم الذي هـزم القوّتيـن العُظْمَيَيْن فـي ذلك العصر ولم يترك من المتاع شـيئًا،

(١٠٧) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ١٤٣/٣؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٢٢٩/٣٠.
(١٠٨) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣٤٧/٤٤.

وعليه فإن القاعدة الأساس لحصول التوفيق الدنيوي والأخروي تتأتّى من مسلك ومنهج كهذا.

ولسيدنا عثمان بن عفان ﷺ أيضًا فضائله الخاصة به؛ فكان من أغنى أغنياء المسلمين أنفق دون أدنى تردُّدٍ ستمائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله تعالى استجابة لطلب سيدنا رسول الله ﷺ القدوةِ الحسنة والمرشدِ الأكمل، فوصل هو الآخر بكرمه وجوده الفائق أفقًا يُدرِك من خلاله فضلَ الخليفتين السابقين عليه.

وكذلك سيدنا عليّ ﷺ أنفقَ في سبيل الله تعالى ما تحصَّل عليه من مالٍ طيلة عمره؛ وكان يقول: "يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِي"[١٠٩]، فانتقل إلى الدار الآخرة فقيرًا رغم كثرة الإمكانيات.

تلك القامات العظيمة لم تستخدم في سبيل مصالحها الشخصية قطُّ حقوقَ التصرّف الواسعة الإطار التي وهبها الله تعالى إياها، ولا الإمكانيّات التي توفّرت لها بسبب مناصبها، وكما أنها لم تلهث وراء منفعةٍ شخصية تحقِّقها لأنفسها، فإنها لم تستغل إمكانياتها وصلاحياتها التي تمتلكها كي تمنح شيئًا لأبنائها وبناتها وأقربائها وحاشيتها ومؤيِّديها.

أشباه القادة، والمجتمعاتُ المنجرفةُ إلى الهلاك

فهل يقع في الكفر من يستغلّون الإمكانيات التي اسْتَأْمَنَتهم عليها الأمة لصالح أنفسهم وأزواجهم وأولادهم ؟ لا بالطبع، إن هذا السلوك -رغم أنه سلوك شنيع- لا يُخرجهم من دائرة الإيمان

(١٠٩) أحمد بن حنبل: **فضائل الصحابة**، ٥٣١/١.

ويدخلهم في دائرة الكفر، غير أنه لا ريب في أنهم يكونون قد اتصفوا بصفةٍ من صفات الكافرين، وإنهم حتى وإنْ صلّوا خمسَهم وصاموا شهرَهم وحجوا فرضَهم؛ فسيظلّون يُؤْوُون في أنفسهم وأجسادهم صفات الكافرين تلك كالجراثيم طالما أنهم لم يُصلحوا نقاط ضعفهم في هذا الشأن، وربما يتسببون في ظهور مجموعة من الانحرافات في تصرفاتهم وسلوكياتهم. أجل، إنهم سيُفكِّرون تفكيرًا خاطئًا، ويتَّخذون قرارات خاطئة، ويتصرَّفون تصرُّفات خاطئة نظرًا لإيوائهم فيروسًا خطيرًا في أبدانهم، ونتيجة لذلك فإنهم سيدفعون رعيَّتَهم إلى الهلاك بسياساتهم الخاطئة.

وينبغي ألّا ننسى أنّ الله ﷻ يحكم على الناس بحسب ما يتحلَّون به من أخلاق؛ فالأخلاق المتعلِّقة بالأوامر التكوينية أو التشريعية كالتحلِّي بالصدق، والحرص على حفظ أعراض الآخرين وشرفهم، والعيشِ في كنَفِ العفّة والعصمة، وعدمِ الطمع في مال أحدٍ ولا ملكه، والحرصِ على التعاون في الخير، والثورةِ على الكسل، وتنظيمِ الوقت، والاستفادةِ من الإمكانيات بصورة إيجابيّة تمامًا، والتفكُّرِ في الكون عشقًا للبحث والحقيقة؛ كلُّ ذلك متّحدًا هو صفة المؤمن الحقّ، يُوفّق الله من يتحلّى بها، ويُعاقب في الدنيا والآخرة مَنْ يُهمِلُها.

أجل، إن الإنسان، وإنْ قال: "إنني متديّنٌ"، ولم يرَ أحدًا غيره يُطبّقُ الإسلام ويدافع عنه مثله، إن كان يجلس في المقاهي كسِلًا خاملًا، ولا يكتفي بذلك بل يغتاب الآخرين ويَنُمُّ ويفتري ويكذب، ويتحرك بالظنون فحسب لا بالحقائق، ويسيء التفكير بحق غيره من المؤمنين؛ فهذا يعني أنه يعيش حياة تتصف بأوصاف الكافرين،

ومـن يتصـف بتلك الصفات ليسـت لـه أيَّة قيمة علـى الإطلاق عند الله تعالـى حتـى وإن أنـزل النجوم من السـماوات بحركة منه -وهذا افتـراضُ محال- وأَبهَرَ مَن في الدنيا كما الألعاب النارية، ومدَّ موائد الأنوار فيها، وربما يُضلِّلُ ذلك الشـخصُ الناسَ لفترةٍ مؤقتة بخداعه إيَّاهم، غير أنَّ مثلَه يومض كالضوء الكاذب وما يلبث أن يخبو سريعًا لأنـه لـم يُقِـمْ علاقة سـليمة قويّـة بالله تعالـى، ولم يسـر على منهج الإيمان، ولم يقتفِ أثر الأنبياء ولم يَدُرْ في فلكهم، ولسـوف يتسـبب فـي هـلاك من يتبعونـه، فهناك كثيـرون ضلَّلوا كمًّا هائـلًا من الناس وجرّوهـم خلفهم مدّةً مـن الزمان، غير أنهم زالـوا وانمحوا دون أن يمضيَ كثير من الوقت، ولم يُخلّفوا وراءهم أثرًا يُذكَر على الإطلاق.

جَشَعٌ لا ينتهي

وعليه فينبغي للمؤمن ألا ينخدِعَ بالشكل، وألا ينسى أن الأصلَ هو المعنـى والجوهر والروح، وعليه أن يلازم الإخلاص والصدق، وأن يربطَ كلَّ حركاته وسـكناته برضا الله تعالى، ويسعى إلى تتبُّعِ الإرادة الإلهيـة فـي كلِّ خطواته؛ لأن مـن لا ينظِّمُ حياته وفقًا للأسـس التي وضعها الله تعالى يصبح فريسةً سهلةً للنفس والشيطان وتوجيهاتهما، ومثل ذلك الشـخص سـوف يملأ خزائنه وحسـاباته المصرفية إذا ما وجد الفرصة لذلك، حتى إنه سـيبدأ في إرسـال الأموال إلى الخارج حيـن لا تكفيـه بنـوكُ وطنِه؛ فيسـلبُ الأمة ويسـرقها بِحِيَلٍ لا تخطر لأحدٍ على بالٍ، ويسـعى لإقامة سـلطنته الخاصة بأموال يغتصبها من الأمة، ومن يتحرك بهذه النوعية من الأفكار الشيطانية يسير في طريق الكفر وإن بدا مؤمنًا.

إن النجاحات والمكاسب وسائلُها ومناهجُها متعينةٌ لا بد من الالتزام بها، ويستحيلُ الوصولُ إلى هدفٍ مشروعٍ عبر سلوك طرق غير مشروعة، وكما يجب أن يكون الهدفُ معقولًا ومشروعًا وإلهيًّا؛ فلا بدَّ أيضًا أن يكون السبيل والمنهج المؤدِّي إليه مشروعًا بنفس الشكل، والفكرُ الوصولي الأناني (الميكافيلي) الذي يرى جواز استخدام الطرق غير المشروعة من أجل الوصول إلى هدفٍ مشروعٍ، وأنَّ الغايةَ تُبرِّرُ الوسيلة؛ إنّما هو همزٌ شيطاني بلا ريبٍ، وإنسانٌ هكذا وإن كان من الذين يرتادون المسجد فإنه لا يختلف حالُه عمن يرتَادُون الخمّارة، ويقيمون في معبد الأوثان.

محاولة سترِ ظلمٍ بظلمٍ أكبر

إن من يرتكبون جرائم عظمى كسرقة أموال الأمة ونهبها والتلاعب بالمناقصات والارتشاء وممارسة حياة بوهيمية أو محاباة ذويهم وتفضيلهم على الآخرين دون أن يستحقّوا ذلك؛ تراهم في أية مرتبة من مراتب الإدارة كانوا؛ لا يرغبون في اطِّلاع الآخرين على أفعالهم المشينة اللعينة تلك، ولذلك فإنهم ينزعجون من أن يتولى أناسٌ أطهار صادقون ليسوا على شاكلتهم ولا منهم ولا يُقرّون بأفعالهم غير المشروعة تلك أيَّ منصب أو مرتبة في الدولة تُمكِّنُ من الاطلاع على تلك الأفعال المشينة، ويخافون من أن يُعترض طريقهم، وأنْ يُفتَضحَ أمرُهم، وأنْ يَفقدوا رصيدهم لدى الناس، وكي يستطيعوا الحيلولة دون هذا كلِّه فإنهم يضغطون على أولئك الصادقين الأطهار ويقمعونهم بطرق ووسائل مختلفة لا يتخيلها عقل؛ ذلك لأن كلَّ مجرم يسعى لستر جريمته والانسلال مما اقترفت

يـداه، بـل إنهـم لا يتورعـون عن عزو التُّهَـمِ إلى غيرهـم رغبة منهم في تبرئة أنفسهم.

وكمـا أنهـم لا يرغبـون في أن يطّلـع الآخرون علـى جرائمهم؛ فإنهـم يسـعون إلى تشـبيه من حولهم بأنفسـهم كي يتحركـوا براحةٍ في المستنقـع الذي يغوصون فيه؛ فمرتكبو نفس المساوئ والجرائم يتفاهمـون بكل سـهولة مـع بعضهـم البعض؛ فيتفـادون بذلك النقدَ واللومَ، ويحاولون إسكات تأنيب الضمير على ما ارتكبوه.

إنهم إلى جانب كل هذا يسـعون إلى تشويه من يرونهم مخالفين لهـم والانتقـاصِ مـن قيمتهـم بمجموعـةٍ مـن الأسـماء والألقـاب يختلقونها في محاولةٍ منهم لِتأمين مستقبلهم والحفاظ على مناصبهم ومراتبهـم، والأدهـى مـن ذلك والأَمَـرُّ أنهم يبذلـون كلَّ هذا الجهد مـن أجلِ إغلاقِ جميـع الأبواب في وجوه هـؤلاء الأنقياء وعزلِهم من مناصبهم، غير أنه ينبغي ألا يُنسـى أنَّ كلَّ هذه الصفات والأفعال هي صفاتُ وأفعالُ أهل الكفر حتى وإن وُجدت لدى إنسان مسلم.

الثباتُ على الحقِّ، وعلوُّ الجنابِ في حلِّ المشكلات

وبالرغـم مـن كلِّ شـيءٍ فإنه يتوجَّـب على المؤمنيـن الحقيقيّين ألَّا يخضعـوا لجبروت وضغوط الطواغيت، وأن يواصلوا السـير في الطريـق الحـقِّ الذي يعرفونـه من ناحيـة، وأن يحاولـوا العثور على سبيل خير وبرٍّ لإنقاذ حتى من يسيئون إليهم؛ فيمنعونهم من ارتكاب الشرور والمسـاوئ بموجب قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّـيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٣٤/٤١)، فقد ورد أنَّ رجلًا تزيَّا بزيّ عالمٍ وكان منزعجًا من قولٍ يُعزى إلى جلال الدين الرومي:

"إحدى قدميّ في وسط الدين والأخرى في وسط اثنين وسبعين أمة"، أو قوله "أَقْبِلْ، أَقْبِلْ، أيًّا كنتَ، فلتُقبِلْ؛ كافرًا كنتَ، أو مجوسيًّا، أو وثنيًّا! أقبل فتكيَّتُنا ليست تكيّة اليأس والقنوط، أَقْبِلْ وإنْ نقَضْتَ توبتَك مائةَ مرة! أقبلْ!"، فراح يَكِيلُ له كلَّ أنواع الشتائم والسباب مما يرد على لسانه قائلًا: "أنت زنديق، أنت فاسق، أنت تُضلل الناس، وتحتضن الجميع وتتملق إلى اليهود والنصارى والمجوس..."، وبينما كان ذلك الرجل يفرغ كل ما بداخله من سموم، كان جلال الدين الرومي يستمع بإخلاصٍ وتواضع كاملين لكل ما قاله، فلما انتهى الرجل من كلامه سأله مولانا: "هل قلت كلَّ ما عندك وانتهيتَ؟"، فأجابه الرجل: "نعم"، فقال له مولانا: "إن صدري مفتوح لك أنت أيضًا، فأَقْبِلْ!".

أجل، ربما يُغلِّق البعضُ جميع الأبواب في وجهكم مختلقًا حججًا واهية مختلفة، وربما يستكثرون عليكم أقل الحقوق والحريّات الأساسية، حتى إنهم قد يطلبون عرقلة مجموعة من خدماتكم الخيرية حتى ولو كانت في أقصى مكان من العالم، عليكم في مقابل هذا أن تقوموا بواجبكم، فتقولوا "حَسْبُنَا اللهُ"، وتواصلوا فعل الخير والعمل الصالح في الطريق الصحيح الذي تعرفونه، ولا ينبغي لكم الردُّ على تلك الإساءات بمثلها، إذ إن مقابلة الظلم بالظلم ظلمٌ، إنَّ الإسلام اعتبر الردَّ على المظالم المرتكبة بمثلها ظلمًا؛ حيث قال رسول الله ﷺ: "**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**"(١١٠)، كما أن القاعدة الكلية تقول: "الضررُ لا يُزال بمثله"(١١١).

(١١٠) **سنن ابن ماجه**، الأحكام، ١٧ ؛ **موطأ الإمام مالك**، الأقضية، ٢٦؛ **مسند الإمام أحمد**، ٥/٥٥.
(١١١) ابن نجيم: **الأشباه والنظائر**، ص ٧٤.

إن سيدنا رسول الله ﷺ تحلى طيلة حياته السنيّة بالمعاملة الحسنة والصفح والعفو عمن أساؤوا إليه؛ حتّى إنه حينما دخل مكّة فاتحًا كان قد انحنى على راحلته، حتى إن عُثْنُونه ليكاد يمسّ واسطة الرَّحل[١١٢] تواضعًا منه لله أنْ فَتَحَ عليه مكة، وبينما كان مَن أذاقوه كل أنواع الشرِّ والأذى حتى ذلك اليوم ينتظرون في خوف وقلق شديدين الحكم الذي سيصدره ﷺ بحقهم؛ إذ به يُطلِقُ حكمَه السمحَ الشهير: "**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**"[١١٣]، مثلما فعلَ يوسف عليه السلام مع إخوته قبل آلاف السنين حينما قال لهم: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ٩٢/١٢)، وتلك هي المروءة، وعلوُّ الجناب! والطريقُ الأمثَلُ الذي يجبُ على ورثة الأنبياء أن يسلكوه في عصرنا وفي كل عصر ومصر إنما هو هذا الطريق!...

(١١٢) ابن هشام: **السيرة النبويّة**، ٤٠٥/٢. (والعُثْنُونُ من اللحية: ما نَبَتَ على الذقن وتحته سِفْلًا).
(١١٣) البيهقي: **السنن الكبرى**، ١٩٩/٩.